مجلــــة العلـــــوم التربــــوية والدراســـــات الإنســــانيـــة
Humanities and Educational Sciences Journal
ISSN: 2709-0302 (online)
ISSN: 2617-5908 (print)



ابن خلدون وخطأ الصحابة في كتابة المصحف عرض ونقد(*)

د/ أنور إبراهيم منصور
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
والدراسات الإسلامية، كلية الآداب
جامعة البحرين

*) تاريخ تسليم البحث 3/6/2025 تاريخ قبوله للنشر 7/8/2025
*) موقع المجلة: http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index

ابن خلدون وخطأ الصحابة في كتابة المصحف
عرض ونقد

د/ أنور إبراهيم منصور
الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية
والدراسات الإسلامية، كلية الآداب
جامعة البحرين

الملخص

منذ نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ والعناية به لم تنقطع، وقد بذل الصحابة رضي الله عنهم في سبيل المحافظة على القرآن نفائس أعمارهم، وغالي أوقاتهم، وتلقت الأمة الرسم القرآني الذي أجمعوا عليه بالقبول.

ويدور هذا البحث حول ما قاله ابن خلدون في كتابة المصحف، وما ادَّعاه من وقوع أخطاء في كتابته، وذلك بسبب أن الصحابة لم يكونوا على دراية تامة بالخط والكتابة، وقد جاء البحث في عدة مباحث: ذكرت في المبحث الأول تعريفًا موجزًا بابن خلدون وبمكانة مقدمته، وفي المبحث الثاني توقفت مع علاقة الصحابة بالكتابة، واتهامهم بالجهل بالكتابة على وجهها الدقيق، والزعم بأن كتبة الوحي تعمدوا الخطأ في كتابة المصحف، وبحثت جذور هذا الاتهام وأثره، أما المبحث الثالث فقد خصصته لبطلان متابعة التابعين لما أخطأ فيه الصحابة في الرسم القرآني تبركًا بما فعلوا، وجاء المبحث الأخير بعدة مناقشات وردود تظهر تهافت هذه الادعاءات، والتناقضات التي وقع فيها أتباعها.

وقد انتهى البحث إلى عدد من النتائج أبرزها: أن ابن خلدون لم يكن أول من قال بالخطأ في رسم المصحف، بل سبقه من قال بهذا القول إما تصريحًا وإما تلميحًا، ويحسب لابن خلدون جرأته على كتبة الوحي، وأن أصحاب هذا الادعاء قد أخطأوا خطأ واضحًا حين قاسوا رسم القرآن على قواعد الإملاء المستحدثة، إلى آخر ما أثبته البحث من نتائج.

الكلمات المفتاحية: ابن خلدون، كتابة المصحف، الرسم الإملائي، الصحابة.

Ibn Khaldun and the Alleged Error of the Companions in the Writing of the Muṣḥaf A Critical Study

Dr. Anwar Ibrahim Mansour
Associate Professor, Department of Arabic Language and Islamic Studies, College of Arts, University of Bahrain

Abstract

Since the Qur'an was revealed to the Prophet, it has been preserved with great care and dedication. The Ṣaḥābah (may Allah be pleased with them) devoted their most valuable time and efforts to safeguarding the Qur'an. The Ummah accepted the Rasm al-Qur'ān (the script of the Qur'an) that they unanimously agreed upon.

This study examines what Ibn Khaldūn stated regarding the writing of the Muṣḥaf, particularly his claim that errors occurred in its transcription due to the Companions' limited proficiency in writing at the time. The study is divided into several sections:

- The first section provides a brief overview of Ibn Khaldūn and the significance of his book: Al-Muqaddimah.
- The second section discusses the Companions' relationship with writing and addresses the accusation that they were unfamiliar with proper orthography, and the claim that the Kuttāb al-Waḥy (scribes of revelation) deliberately introduced errors into the Muṣḥaf. The roots and influence of these accusations are also explored.
- The third section refutes the notion that the Tābiʿīn (Successors) perpetuated such errors in the Rasm of the Qur'an out of reverence for the actions of the Companions.
- The final section presents discussions and rebuttals that expose the fallacies and contradictions within these claims and among their proponents.

The study concludes with several findings, most notably that Ibn Khaldūn was not the first to propose the idea of error in the Rasm al-Muṣḥaf; others had preceded him-either explicitly or implicitly. Ibn Khaldūn, however, is notable for his boldness in directing such criticism toward the scribes of revelation. The proponents of this claim erred significantly by measuring the Rasm of the Qur'an against modern rules of orthography, among other key conclusions demonstrated in this research.

Keywords: Ibn Khaldūn, Muṣḥaf transcription, Qur'anic script (Rasm), Ṣaḥābah, orthography.

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فما من مفكر عربي نال من الشهرة وذيوع الصيت مثل ما نال ابن خلدون بمقدمته، التي تناول فيها مباحث متنوعة في السياسة والزراعة والطب والبناء والفلك والحساب والجبر والعلوم القرآنية والنحو والبيان... وغير ذلك ما اشتملت عليه، ولقد حظيت المقدمة بدراسات عديدة ومتنوعة، منها ما هو باللغة العربية، ومنها ما هو بغير العربية، مما يدل على مكانة المقدمة ونفاسة ما اشتملت عليه.

وهذا البحث يدور حول ما قاله ابن خلدون في مقدمته عن علاقة العرب عامة وأصحاب النبي ﷺ ورضى الله عنهم بصفة خاصة بالكتابة والخط، حيث ذهب إلى أن كتبة الوحي لم يكونوا متقنين للخط، ولم تبلغ درايتهم بالكتابة درجة التوسط، مما أدى إلى وقوع أخطاء في رسم المصحف، وجاء من بعدهم فترك ما كتبه الصحابة كما هو دون تعديل تبركًا بصنيعهم.

وتبرز خطورة ما رآه ابن خلدون في جرأته على كتبة الوحي وحملة الكتاب برميهم بالجهل، واتهام من بعدهم بتعمد المحافظة على الخطأ، رغم معرفتهم به، وقد أدى ذلك إلى تطاول بعض الكاتبين على الصحابة ورسمهم، ووصفوهم بعبارات أقل ما يمكن أن توصف به أنها إساءة أدب.

المنهجُ المتبع:

اعتمدت في هذا البحث على المنهجين: النقدي والتاريخي حيث اقتضت طبيعة البحث ذلك، وقد اتبعت فيه القواعد العلمية المتعارف عليها، فنسبت الأقوال إلى أصحابها، فمن بركة العلم نسبته لقائله، وعزوت الآيات القرآنية الكريمة إلى مواضعها في المصحف، وخرجت الأحاديث الشَّريفة من مصادرها، كما ترجمتُ لأهم الأعلام الذين ورد ذكرهم في البحث.

خطة البحث:

اقتضت طبيعة البحث أن يكون في أربعة مباحث تسبقها مقدمة، وتعقبها خاتمة على النحو الآتي:

المبحث الأول: التعريف بابن خلدون ومقدمته.

المبحث الثاني: الصحابة والكتابة.

المبحث الثالث: تبرك التابعين بخطأ الصحابة في رسم المصحف.

المبحث الرابع: مناقشات وردود

وأردفت ذلك بخاتمة اشتملت على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

المراجع والمصادر

الدراسات السابقة:

على الرغم من كثرة من كتبوا عن ابن خلدون كمؤرخ وفيلسوف ومؤسس لعلم الاجتماع الإسلامي إلا أن الدراسات التي اهتمت بالجوانب الدينية في فكر ابن خلدون جاءت قليلة، وقد يرجع ذلك إلى قلة المباحث الدينية في المقدمة.

أما من اهتم بالجوانب القرآنية وخاصة ما يتعلق برسم المصحف ومقولة ابن خلدون ذائعة الصيت حول كتابة المصحف فلا تكاد تراه في بحث علمي خاص، إنما جاء نثرًا متفرقًا في الكتب، وأكثر من عرض رأي ابن خلدون حول الرسم القرآني لم يعقبه ببيان ما فيه من خطورة.

ولقد وقفت على بحث للدكتور محمد حسين أبو الفتوح عن ابن خلدون ورسم المصحف طبعة مكتبة لبنان بيروت سنة (١٩٩٢م) تناول فيه صاحبه رأي ابن خلدون حول رسم المصحف.

ويختلف عملي عنه في:

- مقدمة موجزة للتعريف بابن خلدون ومقدمته.
- تتبعت مقولة ابن خلدون من الناحية التاريخية، وبينت أقدم من قال بها من السابقين.
- بينت أثر ما ذهب إليه في المحدثين، وجرأة بعضهم على كتاب الله والصحابة.
- تناولت بالنقد ما قاله ابن خلدون عن تبرك التابعين بخطأ الصحابة.

وغير ذلك مما لم يتطرق إليه الدكتور أبو الفتوح وانفرد به هذا البحث.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى:

- تجلية حقيقة ما رمى به ابن خلدون الصحابة الكرام من الخطأ في كتابة المصحف.
- إظهار عدم صحة هذا القول وما بني عليه.
- تبرئة الصحابة رضوان الله عليه مما تُوهمه هذا المقولة في حقهم؛ فقد كانوا أحرص الناس على المحافظة على الكتاب المنزل عليهم، وقد بذلوا في سبيل صيانته كل غال.
- أن التابعين لم يتركوا خطأ في كتاب الله تبركًا بأحد ممن سبقهم.
- البحث عن جذور هذا الاتهام، ومن تأثر بهم ابن خلدون فيما ادعاه.
- بيان تأثير هذه المقولة على من جاء بعده.

تساؤلات البحث:

يسعى هذا البحث إلى الإجابة على عدة تساؤلات مهمة منها:

١- هل أخطأ الصحابة في كتابة المصحف؟

٢- ما موقف التابعين من الرسم الذي اعتمده الصحابة وأجمعوا عليه؟

٣- ما السبب الذي دفع ابن خلدون إلى القول بهذه المقولة في حق الصحابة؟

٤- هل تأثر ابن خلدون بأحد ممن سبقه؟

٥- كيف رأى من جاء بعد ابن خلدون هذا القول؟ وهل كان له تأثير عليهم؟

حدود البحث:

يدور هذا البحث حول:

- المقولة التي ألقى بها ابن خلدون في مقدمته حول رسم المصحف.
- اتهام ابن خلدون الصحابة رضي الله عنهم بقصور معرفتهم بالكتابة.
- حكمه بوقوع أخطاء في رسم المصحف.
- ترك التابعين الأخطاء كما هي - بعد وقوفهم عليها - تبركًا بالصحابة.

هذا: ويعلم الله أني لم أعمد إلى تجريح أحد، أو انتقاص قدره وقيمته، وإنما كان قصدي وغايتي من وراء عملي الحق أين ما كان؟ ومع من كان.

المبحث الأول: التعريف بابن خلدون وبمقدمته

المطلب الأول: التعريف بابن خلدون

يُعد ابن خلدون أشهر من ترجم لنفسه – وإن لم يكن أول من فعل ذلك – فقد خصص الجزء الأخير من تاريخه لترجمته.

فهو: عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن خَلدون بفتح الخاء كما ضبطه بخطه بالقلم مرارًا وكما نص عليه السخاوي(١)، يرجع نسبه إلى حضر موت من عرب اليمن.

كُنّي بأبي زيد، ولُقب بولي الدين، واشتهر بابن خلدون نسبة إلى جده التاسع خالد بن عثمان الذي كان أول من دخل من الأسرة إلى بلاد الأندلس، وقد دخلها مع الفاتحين المسلمين، واشتهر فيما بعد باسم: خلدون، وفقًا للطريقة التي جرى عليها حينئذ أهل الأندلس والمغرب؛ إذ كانوا يضيفون إلى الأعلام واوًا ونونًا للدلالة على تعظيمهم لأصحابها (خالد – خلدون).

وُلد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة، وتربى في حجر والده وتعلم منه، إذ كانت له معرفة بالفقه وعلوم اللغة والشعر، وقرأ القرآن بالقراءات على الأُستاذ المكتِّب أبي عبد الله محمد بن سعد بن بُرَّال الأنصاري، قرأ عليه القرآن بالقراءات السبع إفرادًا وجمعًا إحدى وعشرين ختمة(٢).

مراحل حياته:

مر ابن خلدون في حياته –كما يقول د. على عبد الواحد(٣) – بأربع مراحل، تميزت كل مرحلة منها بمظاهر خاصة من النشاط العلمي والعملي:

المرحلة الأولى: مرحلة النشأة والتلمذة والتحصيل العلمي

وتمتد من سنة ميلاده (٧٣٢هـ) حتى سنة (٧٥١هـ)، حيث استغرقت زهاء عشرين عامًا هجريًا، وقد قضاها كلها في مسقط رأسه بتونس، وقضى منها نحو خمسة عشر عامًا في حفظ القرآن وتجويده بالقراءات والتلمذة على الشيوخ وتحصيل العلوم.

المرحلة الثانية: مرحلة الوظائف الديوانية والسياسية

وتمتد من أواخر سنة (٧٥١هـ) إلى أواخر سنة (٧٧٦هـ)، حيث استغرقت زهاء خمسة وعشرين عامًا هجريًا، قضاها متنقلًا بين بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى وبعض بلاد الأندلس، وقد استأثرت الوظائف الديوانية والسياسية بمعظم وقته وجهوده في أثناء هذه المرحلة(٤).

---

(١) الضوء اللامع، للسخاوي، ١٤٥/٤، دار مكتبة الحياة: بيروت.

(٢) راجع: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا لعبد الرحمن بن خلدون، ص٣، وما بعدها، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر: (١٩٧٩م)، والضوء اللامع للسخاوي، ١٤٥/٤ والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، ٣٧٧/٣، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤٢٤هـ).

(٣) عبقريات ابن خلدون، ص١٧، وما بعدها، ط٢، عكاظ للنشر والتوزيع: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(٤) تولى ابن خلدون عدَّة مناصب أهمها: كتابة العلامة، وهي وضع الحمد لله والشكر لله ما بين البسملة وما يليها من مخاطبة أو رسوم، لأنها كانت تحتاج إلى شيء من الإنشاء والبلاغة حتى تأتي هذه الديباجة مُتسقة مع موضوع المخاطبة..، وأعلى منصب تولاه هو منصب الحجابة بمرتبة رئيس الوزراء في العصر الحاضر، راجع: الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون ومعه المدخل إلى مقدمة ابن خلدون ضياء الدين رجب شهاب الدين، ص٢٣، ط١، دار الفتح الشارقة: (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

المرحلة الثالثة: مرحلة التفرغ والتأليف

وتمتد من أواخر سنة (٧٧٦هـ) إلى أواخر سنة (٧٨٤هـ) حيث استغرقت نحو ثمان سنين، قضى نصفها الأول في قلعة ابن سلامة ونصفها الآخر في تونس.

وقد تفرغ في هذه المرحلة تفرغًا كاملًا لتأليف كتاب: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ويطلق الآن على القسم الأول من هذا الكتاب اسم مقدمة ابن خلدون، وهو يشغل مجلدًا واحدًا من سبعة مجلدات يشغلها هذا الكتاب بحسب طبعة بولاق، ولم يستغرق تأليف هذا القسم في وضعه الأول إلا خمسة أشهر فحسب، وكانت سن ابن خلدون التي كتب فيها المقدمة وبقية الأجزاء الأخرى من كتاب العبر نحو الخامسة والأربعين عامًا(١).

المرحلة الرابعة: مرحلة وظائف التدريس والقضاء

وتمتد من أواخر سنة (٧٨٤هـ) إلى أواخر سنة (٨٠٨هـ) حيث استغرقت زهاء أربع وعشرين سنة قضاها كلها في مصر، وقد استأثرت وظائف التدريس والقضاء بأكبر قسط من وقته وجهوده في أثناء هذه المرحلة.

وفاته:

توفي ابن خلدون فجأة في السادس والعشرين من رمضان سنة (٨٠٨هـ) الموافق (١٦مارس سنة ١٤٠٦م) عن ستة وسبعين عامًا، وكان حينئذ في وظيفة قاضي قضاة المالكية في مصر(٢).

المطلب الثاني: التعريف بمقدمة ابن خلدون

اشتملت مقدمة ابن خلدون على مباحث متنوعة في السياسة والزراعة والنجارة والنساجة والخياطة وفن البناء، والطب، والتوليد، وكذلك في الموسيقي والوراقة، والعلوم القرآنية، والعلوم العددية، والجبر، والهندسة، والفلك، والكيميا، والمنطق، والنحو والبيان، إلخ.

وقد نقب ابن خلدون في مقدمته عن تاريخ الاختراعات البشرية وأطوارها في جميع مناحي العمران، مما جعله – وهو الكاتب الأفريقي الذي عاش في القرن الرابع عشر – ندًا لأعظم فلاسفة أوربا الحديثة(٣)، إن لم يكن قد فاقهم(٤).

---

(١) يقول ابن خلدون: أتممت هذا الجزء الأول بالوضع قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة، ثم نقحته بعد ذلك وهذبته (أبعاد الرؤية القرآنية في الفكر الخلدوني من خلال المقدمة، د/ نجيب خيرة، ص٢٠، مجلة المشكاة، العدد(٤)، (٢٠٠٦م).

(٢) راجع: التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، ص٣، وما بعدها، والضوء اللامع للسخاوي، ٤/١٤٥، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب، ٣/٣٧٧، عبقريات ابن خلدون، ص٧.

(٣) تعليقات الأمير شكيب أرسلان على مقدمة ابن خلدون، المطبعة الرحمانية: مصر، (١٩٣٦م).

(٤) تصور ابن خلدون علم الاجتماع كما تصوره تمامًا أوجست كونت والعلماء المحدثون، بحيث اعتمده معلمًا نظريًا مستقلًا ومتميزًا عن أي علم تطبيقي كالسياسة والاقتصاد السياسي أو الأخلاق وغيرها.

وإن فضل ابن خلدون في كشف علم مستقل في ميدان المعرفة ليتضاعف ويتسامى إذا لاحظنا أن الأجيال التي عقبته عجزت لا عن متابعة مجهوده بل وعن فهم أبحاثه نفسها، وظل هذا العجز أربعة قرون لم يتقدم في أثنائها فكر لا في الشرق ولا في الغرب برأي أو فكرة عملية في تنظيم الدراسات الاجتماعية والإشارة إلى حاجة الإنسانية إلى علم خاص للاجتماع والعمران، فكان ذلك حجة ناطقة وبرهانًا قاطعًا على أن عقلية ابن خلدون أرقى من عصره بل أسبق من العصور التي تلته (ابن خلدون أبو الاجتماع لمحمد وهبي، مجلة الأديب اللبنانية، العدد(١١)، نوفمبر (١٩٤٨م)، ص٢٤)

المقدمة بين المقريزي[١] وابن حجر:

اختلفت آراء العلماء حول المقدمة ومكانتها، فوصفها المقريزي بقوله: مقدمته لم يعمل مثالها، وإنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم ونتيجة العقول السليمة والفهوم، توقف على كنه الأشياء، وتعرف حقيقة الحوادث والبناء، وتعبر عن حال الوجود، وتنبئ عن أصل كل موجود بلفظ أبهى من الدر النظيم وألطف من الماء إذا مر به النسيم[٢].

ولقول المقريزي مناسبته؛ فقد درس في فتوته على ابن خلدون، وأعجب بغزير علمه، ورائع محاضراته، وطريف آرائه، ونظرياته، وكان يتحدث عن شيخه ابن خلدون بمنتهى الخشوع والإجلال، وينعته بشيخنا العالم العلامة الأستاذ قاضي القضاة، ويترجم في كتابه دور العقود الفريدة بإسهاب وإعجاب، ويرتفع في تقدير مقدمته إلى الذروة[٣].

أما ابن حجر فقد حمل على ابن خلدون بشدة، ونقل في ترجمته كثيرًا مما قيل في ذمه وتجريحه، فهو يقول لنا في تاريخه أن ابن خلدون مؤرخ بارع، ولكنه لم يكن مطلعًا على الأخبار على جليتها ولا سيما أخبار المشرق.

ويعارض المقريزي في مدح المقدمة ويرى أنها لا تمتاز بغير البلاغة والتلاعب بالكلام على الطريقة الجاحظية، وأن محاسنها قليلة، غير أن البلاغة تزين بزخرفها حتى يرى حسنًا ما ليس بحسن.

وأما ابن خلدون كقاض فإن ابن حجر يقول لنا: إنه باشر القضاء بعسف وبطريقة لم تألفها مصر، وأنه لما ولي المنصب تنكر للناس، وفتك في كثير من أعيان الموقعين والشهود، وأنه عزل لأول مرة بسبب ارتكابه التدليس في ورقة ثم ينقل في هذا الموطن كثيرًا مما قيل في ذم المؤرخ وتجريحه.

بل ينقل ابن حجر بعض المطاعن الشخصية والأخلاقية التي قيلت في حق المؤرخ[٤].

وهذه أقوال تنم عن خصومة ومبالغة في الانتقاص، وابن حجر – على رغم اتزانه واعتداله وعفة قلمه – ينساق هنا إلى نوع من التجريح والانتقاص ليس مألوفًا في كتاباته، ولا ريب أن في لهجته وأقواله مبالغة وتحاملًا[٥].

وبعيدًا عن المبالغات في المدح أو الذم، فالأمر الذي لا يختلف عليه أحد، ويعترف به كل منصف أن أقوال ابن خلدون في مقدمته أو في غيرها ليس كلها صوابًا، شأنه في ذلك شأن سائر البشر.

---

(١) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد مؤرخ الديار المصرية، ولد سنة تسع وستين وسبعمائة، واشتغل في الفنون وخالط الأكابر، وولي حسبة القاهرة، ونظم ونثر، وألف كتبًا كثيرة، منها درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، مات سنة أربعين وثمانمائة (حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي، ١/٥٥٧، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي وشركاه: مصر، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م)

(٢) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة لتقي الدين أحمد المقريزي، ٢/٤٠٣، حققه د/ محمود الجليلي، ط١، دار الغرب الإسلامي: (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

(٣) مجلة الرسالة لأحمد حسن الزيات، العدد(٥)، (١٥/٣/١٩٣٣م)، ص٢٧.

(٤) راجع: إنباء الغُمْر بأنباء العُمر لابن حجر العسقلاني، ٢/٣٤٠ وما بعدها، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية مصر، (١٣٨٩-١٣٩٢هـ)، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، ٤/١٤٧، الدر المصون بتهذيب ابن خلدون، ص٢٧.

(٥) مجلة الرسالة، العدد(٩)، بتاريخ (١٥/٥/١٩٣٣م) ص٤٠.

وإن رفع الرجل إلى منزلة أكبر من منزلته الحقيقية والاعتقاد بأنه لم يخطئ أو ينحرف عن المادة منهجًا أو موضوعًا لهو الضلال بعينه؛ لأنه ما من فكر بشري سواء استمد من مصادر دينية أم وضعية إلا وهو معرض للخطأ والصواب[1].

العرب والأعراب:

هناك بعض العبارات في المقدمة كانت محلًا للبحث والنقد، من ذلك ما جاء في بعض عناوين مقدمته عن العرب مثل:

إن العرب لا يستولون إلا على البسائط.

وأن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.

وإن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك.

إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.

وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع.

وغير ذلك من أقوال وعبارات أثارت مناقشات وتأويلات.

وتجلية للأمر أشير إلى أن ابن خلدون قد استعمل كلمة العرب بمعنى البدو والأعراب، خلافًا للمعنى الذي نفهمه منها الآن، ويتبين ذلك من الدلائل الكثيرة المنبثة في جميع أقسام المقدمة.

قال الدكتور دروزة: ولقد استعمل ابن خلدون لفظ العرب خطأ في مقام الأعراب أو استعمله استعمالًا عاميًّا كما كان المفهوم شائعًا في حياته، وأدى هذا إلى فهم تقريراته عن البدو وطبائعهم وحياتهم وآثارهم فهمًا خاطئًا، في حين أن ما ذكره عن نفور العرب من الحضارة وتدمير المعالم الحضرية إنما ينطبق على الأعراب لا على العرب، وهو ما يدخل في مفهومه جميع أعراب الدنيا لا أعراب العرب خاصة.

ومن الغريب أن يكون هذا الفهم الخاطئ وأن يستمر إيراده في معرض وصف طبائع العرب وأخلاقهم مع ما في الأمر من بداهة ومع ما في كلام ابن خلدون من دلالات على أنه إنما قصد البدو والأعراب[2].

وقد أدى عدم انتباه بعض القراء والباحثين إلى هذا الاستعمال الخاص إلى أخطاء عظيمة في فهم مقاصد ابن خلدون، لأن ذلك أظهره بمظهر المتحامل على العرب، وحمل بعض الشعوبيين على الاستشهاد به، كما دفع بعض القوميين إلى الهجوم عليه[3].

وإن عدم ورود كلمة الأعراب أو الأعرابي إلا بضع مرات في المقدمة – على الرغم من سعة المباحث العائدة إلى الحياة البدوية وكثرة الفصول المتعلقة بالقبائل المتنقلة، وعلى الرغم من ورود كلمة العرب مئات المرات – لدليل واضح على أن ابن خلدون لم يعمل بالقاعدة التي قال بها علماء اللغة من وجوب تسمية البدو بالأعراب لا بالعرب[4].

---

(١) ابن خلدون إسلاميًا، د/ عماد الدين خليل، ص١١-١٢، ط١، المكتب الإسلامي: بيروت، (١٤٠٣/١٩٨٣م).

(٢) التفسير الحديث، ٩/٥١٩، دار إحياء الكتب العربية: القاهرة، سنة (١٣٨٣هـ).

(٣) دراسات عن مقدمة ابن خلدون لساطع الحصري، ص١٥١، ط٣، نشر مكتبة الخانجي – دار الكتاب العربي: (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م) بتصرف يسير.

(٤) المصدر السابق نفس الموضع.

والخلاصة أن الناظر بإنعام إلى فصول مقدمة ابن خلدون يجد أن مدار بحثه وكلامه لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام، فلا مجال للشك في أن ابن خلدون عندما كتب هذه العبارات وقال: لا يحتاجون إلى الحجر إلا لوضع القدور ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام، لم يفكر قط بأهل المدن والأمصار، وإنما قصد أعراب البادية وحدهم[١].

وقد تتبع ساطع الحصري في دراساته عن ابن خلدون[٢] الكلمة في الاستعمال اللغوي والأدبي، وبيَّن الالتباس الذي سيطر على أقلام علماء اللغة وعظماء الأدب أنفسهم في استخدامهم كلمة العرب والأعراب.

فليس بمستغرب على ابن خلدون صنيعه إذن!

المبحث الثاني: الصحابة والكتابة

من المقرر لدى المهتمين بتاريخ الجزيرة العربية غلبة الأمية وشيوعها لدى العرب، وعدم عنايتهم بالخط والكتابة، وذلك لما امتازوا به من قوة الحافظة، إلا أن هذا لا يعنى الندرة ولا الإغراق في الجهل كما ذهب إليه ابن خلدون في مقدمته.

ففي رأيه أن الصحابة لم يكونوا متقنين للخط والكتابة، وأن معرفتهم به لم تبلغ الإتقان ولا التوسط، ثم رتب ابن خلدون علي عدم معرفتهم هذه وقوع أخطاء في كتابة رسم المصحف.

قال: كان الخط العربي لأول الإسلام غير بالغ إلى الغاية من الإحكام والإتقان والإجادة، ولا إلى التوسط، لمكان العرب من البداوة والتوحش وبعدهم عن الصنائع.

وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهله.

ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه...[٣].

ويتبين خطر ما ذهب إليه ابن خلدون من جانبين:

أولهما: اتهام الصحابة بالجهل بالكتابة على وجهها الدقيق، وتعمد كتبة الوحي منهم الخطأ في كتابة المصحف، وعدم تصحيحهم ذلك.

ثانيها: إثبات الخطأ في كتاب الله منذ عصر الصحابة.

قال الدكتور أبو شهبة: تبرز خطورة رأي ابن خلدون فيما طرحه في جرأته على كتاب الوحي، وجمّاع القرآن من حيث عدم إجادتهم قواعد الإملاء، وعدم تمكنهم من الكتابة الصحيحة، وتأكيده على وجود أغلاط إملائية في الرسم القرآني، وهذا اتجاه خطير، ولا يمكن التسليم به، لأنه يتعلق بكتاب الله أولًا، ولأنه لا يحترم خصوصية الرسم القرآني ثانيًا[٤].

---

(١) ابن خلدون ورسم المصحف العثماني، د/ حسين أبو الفتوح، ص٣٠، ط١، مكتبة لبنان: بيروت، (١٩٩٢م)، نقلًا عن دراسات عن مقدمة ابن خلدون ساطع الحصري، ص١٥٦-١٥٧.

(٢) ص١٥١، وما بعدها.

(٣) تاريخ ابن خلدون، ٥٢٦/١-٥٢٧.

(٤) المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص١٥٩، ط٢، مكتبة السنة: القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

وليس من الإنصاف الوقوف عند كلام ابن خلدون وغض الطرف عن أقوال من سبقه، فهناك عدد غير قليل من العلماء السابقين على ابن خلدون قالوا مثل مقولته تارة بالتصريح وأخرى بالتلميح.

المطلب الأول: جذور ما ذهب إليه ابن خلدون

من خلال التتبع التاريخي لمن سبق ابن خلدون ظهر أن هناك من قال بمثل مقولته السابقة، وسأتتبع هنا هذه الأقوال:

١-أبو زكريا الفراء[١]:

يعد الفراء أقدم من أشار إلى وقوع أخطاء في رسم المصحف، ففي توجيهه لقوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾[٢] قال: بلام ألف وألف بعد ذلك، ولم يكتب في القرآن لها نظير، وذلك أنهم لا يكادون يستمرون في الكتاب على جهة واحدة ألا ترى أنهم كتبوا ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[٣] بغير ياء، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾[٤] بالياء، وهو من سوء هجاء الأولين[٥].

٢-ابن قتيبة[٦]:

حين تعرض ابن قتيبة لتأويل بعض الرسوم قال: وليست تخلو هذه الحروف من أن تكون على مذهب من مذاهب أهل الإعراب فيها، أو أن تكون غلطًا من الكاتب، كما ذكرت عائشة رضي الله عنها.

فإن كانت على مذاهب النحويين فليس هاهنا لحن بحمد الله.

وإن كانت خطأ في الكتاب، فليس على رسولهﷺ جناية الكاتب في الخط.

ولو كان هذا عيبًا يرجع على القرآن، لرجع عليه كل خطأ وقع في كتابة المصحف من طريق التّهجّي:

وكتبوا ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾ بالواو، وكتبوا: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٧] فمال بلام منفردة.

---

(١) أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي، المعروف بالفراء، الديلمي الكوفي مولى بن أسد، وقيل مولى بني منقر، كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب، والفراء: بفتح الفاء وتشديد الراء وبعدها ألف ممدودة، وإنما قيل له فراء ولم يكن يعمل الفراء ولا يبيعها، ولد بالكوفة، وانتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه بها وتوفي الفراء سنة سبع ومائتين في طريق مكة، وعمره ثلاث وستون سنة، رحمه الله تعالى، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان، ١٨١/٦، دار صادر: بيروت، سنة (١٩٠٠م).

(٢) التوبة: ٤٧.

(٣) القمر: ٥.

(٤) يونس: ١٠١.

(٥) معاني القرآن لأبي زكريا الفراء، ص٤٣٩، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجم: مصر.

(٦) هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتَيبة المَرْوَزِيُّ، النحوي اللغوي، كانت ولادته سنة ثلاث عشرة ومائتين، وقتيبة: بضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها باء موحدة ثم هاء ساكنة، وهي تصغير قتبة بكسر القاف، وهي واحدة الأقتاب، والأقتاب: الأمعاء، وبها سمي الرجل، توفي سنة ست وتسعين ومئتين، (طبقات النحويين واللغويين للزبيدي، ص١٨٣، دار المعارف: (سلسلة ذخائر العرب ٥٠، ووفيات الأعيان ٤٢/٣)

(٧) المعارج: ٣٦.

وكتبوا: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(1) بالياء ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾(2) بالياء في الحرفين جميعًا، كأنهما مضافان، ولا ياء فيهما، إنما هي مكسورة.

وكتبوا: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾(3) ﴿فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾(4) بواو، ولا ألف قبلها، وكتبوا: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾(5) بواو بعد الألف، وفي موضع آخر ﴿مَا نَشَآءُ﴾(6) بغير واو، ولا فرق بينهما، وكتبوا: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾(7) بزيادة ألف، وكذلك ﴿وَلَأَاْوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ﴾(8) بزيادة ألف بعد لام ألف، وهذا أكثر في المصحف من أن نستقصيه(9).

وحين أشار ابن قتيبة إلى قلة الكتابة بين العرب وبين الصحابة على وجه الخصوص حصرها في واحد أو اثنين، وقال في تعليله خصوصية النبي ﷺ بالكتابة وإذنه لعبد الله بن عمرو:

أن يكون – يعني النبي ﷺ – خص بهذا عبد الله بن عمرو لأنه كان قارئًا للكتب المتقدمة، ويكتب بالسريانية والعربية وكان غيره من الصحابة أميين، لا يكتب منهم إلا الواحد والاثنان، وإذا كتب لم يتقن، ولم يصب التهجي. فلما خشي عليهم الغلط فيما يكتبون نهاهم، ولما أمن على عبد الله بن عمرو ذلك أذن له(10).

وما قاله ابن قتيبة فيه من المبالغات ما لا يخفى، ولا يستقيم مع الحقائق التاريخية، وقد كان له أثره الواضح فيمن جاء بعده، مرورًا بابن خلدون إلى العصر الحديث كما سيظهر بعد.

٣- البلاذري(11):

وافق البلاذري ابن قتيبة على رأيه في قلة الكتبة في صدر الإسلام، غير أنه زاد في عددهم عما قاله ابن قتيبة. قال: دخل الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يكتب(12).

---

(١) الأنعام: ٣٤.

(٢) الشورى: ٥١.

(٣) الشورى: ٢١.

(٤) إبراهيم: ٢١.

(٥) هود: ٧٨.

(٦) الإسراء: ١٨، والحج: ٥.

(٧) النمل: ٣١.

(٨) التوبة: ٤٧.

(٩) تأويل مشكل القرآن، ص٤١-٤٢، دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

(١٠) تأويل مختلف الحديث، ص٤١٢، ط٢، المكتب الاسلامي – مؤسسة الإشراق الطبعة: (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

(١١) هو أبو جعفر أحمد بن يحيي بن جابر بن داود البلاذري، ولد في أواخر القرن الثاني الهجري، والبلاذري بفتح الباء، وضم الذال، وكسر الراء، نسبة إلى البلاذر: وهو شجر من فصيلة البطميات توفي بعد السبعين ومئتين، رحمه الله، سير أعلام النبلاء للذهبي ١٦٣/١٣، دار الحديث: القاهرة، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

(١٢) فتوح البلدان، ص٤٥٣، دار ومكتبة الهلال: بيروت، عام النشر (١٩٨٨م).

٤- الباقلاني[١]:

اتجه الباقلاني إلى ما ذهب إليه البلاذري وابن قتيبة غير أنه اكتفى بعدم توقيف الرسم لعدم ثبوت دليل عليه فقال: وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئًا، إذ لم يأخذ على كتاب القرآن وخطاط المصاحف رسمًا بعينه دون غيره، أوجبه عليهم وترك ما عداه، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف، وليس من نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القرآن وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص، وحد محدد، لا يجوز تجاوزه، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك، ولا دلت عليه القياسات الشرعية، بل السنة دلت على جواز رسمه بأي وجه سهل لأن رسول الله صلى الله علي وسلم كان يأمر برسمه، ولم يبين لهم وجهًا معينًا، ولا نهى أحدًا عن كتابته، ولذلك اختلفت خطوط المصاحف، فمنهم من كان يكتب الكلمة على مخرج اللفظ، ومنهم من كان يزيد وينقص، لعلمه بأن ذلك اصطلاح، وأن الناس لا يخفى عليهم الحال، ولأجل هذا - بعينه - جاز أن يكتب بالحروف الكوفية والخط الأول، وأن يجعل اللام على صورة الكاف، وأن تعوج الألفات، وأن يكتب على غير هذه الوجوه، وجاز أن يكتب المصحف بالخط والهجاء القديمين، وجاز أن يكتب بالخطوط والهجاء المستحدثة، وجاز أن يكتب بين ذلك.

وإذا كانت خطوط المصاحف وكثير من حروفها مختلفة متغايرة الصورة، وكان الناس قد أجازوا ذلك، وأجازوا أن يكتب كل واحد منهم بما هو عادته، وما هو أسهل وأشهر وأولى، من غير تأثيم ولا تناكر، علم أنه لم يؤخذ من ذلك على الناس حد محدود مخصوص، والسبب في ذلك: أن الخطوط إنما هي علامات ورسوم تجري مجرى الإشارات والعقود والرموز، فكل رسم دال على الكلمة، مفيد لوجه قراءتها تجب صحته، أو تصويب الكاتب به على أي صورة كانت.

وبالجملة: فكل من ادعى أنه يجب على الناس رسم مخصوص، وجب عليه أن يقيم الحجة على دعواه، وأنى له ذلك[٢]؟
وكلام الباقلاني يفيد كثرة الكاتبين وقتئذ، واتجاه كل كاتب في الكاتب حسب ما تيسر له.

٥- البلوي[٣]:

اشتط البلوي وبالغ في التقليل من شأن العرب في صدر الإسلام، فحكم بانعدام الكتابة فيهم، وأنهم جعلوا الشعر عوضهم دونوا به كلامهم، وعرفوا من خلاله أيامهم.

---

(١) أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القسم، المعروف بالباقلاني البصري المتكلم المشهور؛ كان على مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، ومؤيدًا اعتقاده وناصرًا طريقته، وسكن بغداد، وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة في علم الكلام وغيره والباقلاني: بفتح الباء الموحدة وبعد الألف قاف مكسورة ثم لام ألف وبعدها نون، هذه النسبة إلى الباقلي وبيعه، وفيه لغتان: من شدد اللام قصر الألف ومن خفتها مد الألف فقال: باقلاء توفي القاضي أبو بكر المذكور آخر يوم السبت، ودفن يوم الأحد لسبع بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة ببغداد (وفيات الأعيان ٤/٢٦٩).

(٢) الانتصار للقرآن، ٢/٥٤٧-٥٤٨، نشر دار الفتح: عَمَّان، ط١، دار ابن حزم: بيروت، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

(٣) يوسف بن محمد بن عبد الله بن يحيى بن غالب، أبو الحجاج البلوي المالقي الأندلسي المالكي، ويقال له ابن الشيخ: عالم باللغة والأدب، مولده ووفاته بمالقة، تولى الخطابة بها، له كتاب: ألف باء، توفي سنة (٦٠٤هـ)، (الأعلام لخير الدين الزركلي ٨/٢٤٧، ط١٥، دار العلم للملايين: أيار/ مايو ٢٠٠٢م).

قال: وللخط فضل وشرف، ومنفعة لا تجهل، بل تعرف به تقييد العلوم وتثبت وتزرع في الصدور فتنبت... ولما عدمت الكتابة في الجاهلية وكانت أمة أمية جعل لها الشعر والعروض، فأدركت به الغرض، أقامته مقامها، فدونت به كلامها وعرفت به أيامها[1].

ثم جاء ابن خلدون بعد هؤلاء فقال مقولته المشهورة في مقدمته، وقد أشرت إليها في البداية، والتي راجت وانتشرت لشهرة قائلها ومؤَلَفه.

المطلب الثاني: أثر مقولة ابن خلدون في المحدثين:

بينت فيما سبق جذور مقولة ابن خلدون، وهنا سأبرز أثر هذه المقولة في المحدثين فأقول:

كان لمقولة ابن خلدون في الرسم القرآني، وما فيه من مخالفات لقواعد الخط الإملائي أثر في عدد من المحدثين، وهم:

١ –أحمد أمين:

حين تعرض أحمد أمين لوصف الحركة العلمية عند العرب في كتابه: (فجر الإسلام)، خصَّ كتَّاب الوحي بالذكر، واصفًا إياهم بعدم إجادة الكتابة، ولا الخط، مستشهدًا في ذلك بمقولة ابن خلدون فقال:

(ولندرة الكتابة كانوا يُلقِّبون مَنْ جمع بين معرفة الكتابة، والرمي، والعوم الكامِل، فلقبوا بهذا اللقب سعد بن عُبادة، وأسْيَد بن حضَيْر وعبد الله بن أبي..، فلما جاء الإسلام استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض هؤلاء الذين يعرفون الكتابة لكتابة ما ينزل من القرآن ...، وحتى هؤلاء الذين كانوا يكتبون الوحي لم يكونوا مهرة في الكتابة، ولا كتابتهم سائرة على نمط واحد، ولا خاضعة لقوانين الإملاء، فكتبوا "لا أذبحنَّه" بزيادة ألف، وكذلك "لا أوضعوا" وكتبوا "بأييد "بياءَين، وكتبوا "امرأت فرعون" و"قرتُ عين لي ولك" بتاء مفتوحة، وحذفوا الألفات من مواضع دون مواضع مع تساويها في نظر الإملاء، وسبب ذلك – كما يعلِّله ابن خلدون – ضعفهم في صناعة الخط، وأنهم لم يبلغوا حدَّ الإجادة فيها)[2].

ونادى – أحمد أمين – في مجمع اللغة العربية بتغيير الرسم وقال: الحق أننا مجرمون أشد الإجرام في المحافظة على رسم القرآن؛ لأننا نفترض أن من يقرأ القرآن يجب أن يكون قد حفظه أولًا.

وقال: إن حق المحدثين في الوضع مقرر بالطبيعة فلا مساغ للنزاع فيه، وإن الذين أنكروه لم ينكروه بقول يناقش ولا حجة تسمع، إنما قولهم فيه أشبه بقولهم في كتابة المصحف، فقد قالوا: لابد أن نكتب القرآن بالرسم الذي كتب به في زمن عثمان، فنكتب (الصلاة) بالواو ونلفظها بالألف، ونكتب (والسماء بنيناها بأييد) بياءين ونلفظها ياء واحدة، ونكتب (لشيء) بألف زائدة بين الشين والياء ونطقها بدونها، ولو كان هذا الرسم موحى من الله على رسوله لآمنا به وحرصنا عليه، ولكنه من عمل قوم كانوا قريب عهد بالخط فوقع فيه الخطأ والنقص والإشكال، والغرض من كتابة القرآن أن نقرأه صحيحًا لنحفظه صحيحًا، فكيف نكتبه بالخطأ لنقرأه بالصواب،

(١) راجع: كتاب ألف باء، للبلوي تصحيح مصطفى وهبي، ص٧٠، المطبعة الوهبية.

(٢) فجر الإسلام، أحمد أمين، ص ١٤٢، ط١٠، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان، (١٩٦٩م).

وما الحكمة في أن نقيد كتاب الله بخط لا يكتب به اليوم أي كتاب؟ وإذا احتجنا في دفع هذه الأقوال إلى غير الوجدان فلن يصح في الذهان شيء(١).

٢-الطاهر ابن عاشور:

أشار ابن عاشور في تفسيره إلى عدم إجادة الصحابة للخط فقال في تعليله بعض ظواهر الرسم: لم يكن الرسم في زمن كتابة المصاحف في أيام الخليفة عثمان قد بلغ تمام ضبطه(٢).

هذا على رغم اعترافه وإقراره بأن الرسم سنة متبعة(٣).

٣-د. على عبد الواحد وافي:

أُعجب د. وافي بمقولة ابن خلدون وعدَّها من الجرأة القائمة على الدقة العلمية والتاريخية فقال في كتابه: عبقريات ابن خلدون: له - أي لابن خلدون - رأي في رسم المصحف العثماني، وتعليل ما جاء فيه من مخالفة للرسم المعهود رأى يتسم بالجرأة مع تحرى الدقة من الناحيتين العلمية والتاريخية معًا(٤).

أما أنه رأي يتسم بالجرأة فلا خلاف عليه، وأما تحرى الدقة من الناحيتين التاريخية والعلمية فهذه تحتاج إلى نظر.

وبدا د. وافي متأثرًا بما ذهب إليه ابن خلدون في كتابه فقه اللغة بقوله: رسمت في المصاحف حروف كثيرة بصورة مضطربة خاطئة، كزيادة الياء في "بأييد" والألف في "لا أذبحنه"(٥).

أقوال وشطحات:

نتيجة لشدة التأثر بكلام ابن خلدون وجدنا من الباحثين من اتخذ من معيشة العرب البدوية سببًا في عدم معرفتهم بالكتابة والقراءة بقوله: العرب قبل الإسلام كانوا أمة بدوية، لا يهمهم إلا تربية الإبل والشاة، وانتجاع الكلأ لرعايتها، وشيء يسير من التجارة، لجلب الأقوات والثياب والسلاح اللازم لإقامتهم في البوادي، معرضين لافتراس الوحوش الضارية ولغارات السالبين والآخذين بالثأر وحماية القوافل التجارية، ومثل هذه المعيشة لا يقتضي انتشار الكتابة والقراءة وإذا وجد فيهم من يكتب ويقرأ فإنما هو نزيل هبط إليهم، أو آيب من سفر بعد طول إقامة في أرض متحضرة، أو آخذ عن هذين وهو نادر؛ فكان الأعرابي يقرع الأسماع برائع الشعر وفائق النثر وهو لا يعرف حروف الهجاء ولا أسماء أوجه الإعراب(٦).

وممن دعا إلى التخلي عن رسم المصحف من المعاصرين رجاء النقاش فقد كتب مقالًا افتتاحيًا في أحد أعداد مجلة الهلال التي كان يرأس تحريرها وقتئذ تحت عنوان: حرروا القرآن من هذه القيود: إن من واجبنا ولا شك أن

---

(١) مجلة الرسالة، لأحمد حسن الزيات، ص٤٤، العدد(٨٦٣)، تاريخ (١٦/١/١٩٥٠).

(٢) التحرير والتنوير لابن عاشور، ٢٦/٣٤٠، الدار التونسية للنشر: (١٩٨٦م).

(٣) التحرير والتنوير، ١٥/٤٩٥.

(٤) عبقريات ابن خلدون، ص١٧، وما بعدها، ط٢، عكاظ للنشر والتوزيع: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

(٥) فقه اللغة، ص١٩٢، ط٣، نهضة مصر: (٢٠٠٤م).

(٦) حياة اللغة العربية، حفني ناصف، ص٤٦، ط١، نشر مكتبة الثقافة العربية: (١٤٢٣هـ).

نحتفظ بالمصحف القديم بخطه المعروف فذلك أثر عزيز من آثارنا لا يجوز أن نهمل في المحافظة عليه، ولكن يجب أن تكون لدينا الشجاعة الدينية الكافية لكي نطبع مصحفًا خاليًا من هذه الحروف التي تجعل قراءته صعبة، بل ومستحيلة إلا عند المتخصصين(١).

قلت: إذا كان ابن خلدون ومن سبقه خاضوا في هذا الأمر إلا أن عباراتهم – مهما بلغت – حملت الإجلال لمكانة الصحابة رضي الله عنهم ومنزلتهم.

أما بعض المحدثين المتأثرين بما قاله ابن خلدون فقد تركوا لأنفسهم الخوض في هذا الأمر دون ضابط يذكرهم بالصحابة وبمكانتهم.

وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدلُّ على الجهالة في العلم، والبلادة في الذهن، والقصور في الإدراك، إن لم يدلَّ على سوء النية، وخبث القصد، والعداء لكتاب الله تعالى.

فتطرف أحدهم في المنهج، وضل في الفكر، ووصف طريقة رسم المصحف بأنها سخيفة تارة، وبأنها بدائية سقيمة قاصرة للرسم تارة أخرى، بقوله:

لما كان أهل العصر الأول قاصرين في فن الكتابة، عاجزين في الإملاء، لأميتهم وبداوتهم، وبعدهم عن العلوم والفنون، كانت كتابتهم للمصحف الشريف سقيمة الوضع غير محكمة الصنع، فجاءت الكتبة الأولى مزيجًا من أخطاء فاحشة ومتناقضات متباينة في الهجاء والرسم.

وقال عن المصحف: إن فيه من المتناقضات الغريبة والتنافر المعيب ما لا يمكن تعليله ولا يستطاع تأويله ...(٢).

والخلاصة: أن هذه الأقوال جاءت نتيجة جرأة ابن خلدون ومقولته عن رسم المصحف وجهل الصحابة رضي الله عنهم بالكتابة.

المبحث الثالث: تبرك التابعين بخطأ الصحابة في رسم المصحف

بعد أن قرر ابن خلدون ضعف الكتابة في صدر الإسلام، وبنى عليها وقوع أخطاء من الكتبة لرسم المصحف، انتهى إلى أن من جاء بعدهم علموا مواطن الخطأ في كتاب الله، ومع ذلك لم يغيروها وتركوها تبركًا بفعل الصحابة. حيث قال:

ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركًا بما رسمه أصحاب الرسول ﷺ وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يقتفي لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركًا ويتبع رسمه خطأ أو صوابًا، وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه؟ فاتبع ذلك وأثبت رسمًا ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.

يقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنه: إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأييد إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له إلا التحكم المحض، وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في

(١) مجلة الهلال المصرية، ص٤، العدد(١٢)، ديسمبر (١٩٧٠م).

(٢) راجع هذه النقول ومصادرها في: رسم المصحف دراسة لغوية لغانم قدوري الحمد، ص٢١١، وما بعدها، ط١، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر بالعراق، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

ذلك تنزيها للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط، وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا إليهم الكمال بإجادته وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح(١).

المطلب الأول: بطلان ما ذهب إليه ابن خلدون

إن القول بمتابعة من جاء بعد الصحابة لهم في رسم المصحف تبركًا بهم، قدح في فقه بل ودين هؤلاء! إذ كان التبرك عندهم الأصل، حتى لو خالف الوحي.

والحق أن المعول عليه في هذا العصر لم يكن التبرك، وإنما كان ديدنهم ما وافق الحق والصواب قبلوه، وما خالف الحق والصواب نبذوه(٢).

قال الزمخشري: لا يلتفت إلى ما زعموا من وقوعه خطأ في خط المصحف، وربما التفت إليه من لم ينظر في الكتاب(٣)، ولم يعرف مذاهب العرب...

وخفي عليه أن السابقين الأولين الذين مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كانوا أبعد همة في الغيرة على الإسلام وذب المطاعن عنه من أن يتركوا في كتاب الله ثلمة ليسدها من بعدهم وخرقًا يرفوه من يلحق بهم.

ونحن ممن لا يصدق هذا في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفي هذا حتى يبقى ثابتًا بين دفتي الإمام أي المصحف الإمام وهو مصحف عثمان؟ وكان متقلبًا بين أيدي أولئك الأعلام المحتاطين لدين الله المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلائله ودقائقه خصوصًا عن القانون الذي إليه المرجع والقاعدة التي أقيم عليها البناء؟ هذا والله فرية ما فيها مرية(٤).

بل إن أبا حيان رحمه الله قد وصف القائل بهذا القول ممن قال به قبل ابن خلدون بانه قول زنديق ملحد(٥).

قال ابن الجزري: ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله أقام له أئمة ثقات تجردوا لتصحيحه وبذلوا أنفسهم في إتقانه وتلقوه من النبي – صلى الله عليه وسلم – حرفًا حرفًا، لم يهملوا منه حركة ولا سكونا ولا إثباتًا ولا حذفًا، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم، وكان منهم من حفظه كله، ومنهم من حفظ أكثره، ومنهم من حفظ بعضه، كل ذلك في زمن النبي ﷺ(٦).

وقال البيهقي في شعب الإيمان: من يكتب مصحفًا ينبغي أن يحافظ على الهجاء الذي كتبوا به تلك المصاحف، ولا يخالفهم فيه، ولا يغير مما كتبوه شيئًا فانهم كانوا أكثر علمًا، وأصدق قلبًا ولسانًا، وأعظم أمانة منا، فلا ينبغي أن نظن بأنفسنا استدراكًا عليهم(٧).

---

(١) تاريخ ابن خلدون، ١/٥٢٦-٥٢٧.

(٢) المدخل لدراسة القرآن، د. أبو شهبة، ص٣٥٥، ط٢، مكتبة السنة: القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م) بتصرف.

(٣) يريد كتاب سيبويه.

(٤) الكشاف، ١/٥٩٠، ٢/٥٣،١ ط٣، دار الكتاب العربي: بيروت، سنة (١٤٠٧هـ).

(٥) البحر المحيط في التفسير، ٦/٣٩١، دار الفكر: بيروت، (١٤٢٠هـ).

(٦) النشر في القراءات العشر، ١/٦، صححه على محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى.

(٧) شعب الإيمان للبيهقي، ٤/٢١٩، ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع: الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي: الهند، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

المطلب الثاني: ما استند إليه ابن خلدون

قد يكون مستند ابن خلدون ومن لف لفه إلى روايات منسوبة إلى بعض الصحابة كعثمان بن عفان وعائشة رضى الله عنهما تثبت وقوع اللحن في المصحف.

مثل ما روى أن عثمان لما نظر في المصحف قال: أرى أن فيه لحنا، وستقيمه العرب بألسنتها، وروى عن ابن عباس انه قرأ: أفلم يتبين الذين آمنوا، فقيل له ﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[1] قال: أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس، وقد كانت عائشة تقول في بعض الحروف: إنها خطأ من الكاتب[2].

وهذا من الأوهام الكاذبة والأخبار الواهية، وبيّنٌ فساده من جهات:

أحدها: أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتسارعون إلى إنكار أدق النكرات، فكيف يقرأون اللحن في القرآن مع أنهم لا كلفة عليهم في إزالته؟

والثاني: أن العرب كانت تستقبح اللحن غاية الاستقباح في الكلام، فكيف لا يستقبحون بقاءه في المصحف؟

والثالث: أن الاحتجاج بأن العرب ستقيمه بألسنتها غير مستقيم؛ لأن المصحف الكريم يقف عليه العربي والعجمي.

والرابع: أنه قد ثبت في الصحيح أن زيد بن ثابت أراد أن يكتب "التابوت" بالهاء على لغة الأنصار، فمنعوه من ذلك، ورفعوه إلى عثمان رضي الله عنه، فأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش[3].

والخامس: أن ذلك لا يصح عن عثمان، فإن إسناده ضعيف مضطرب منقطع، ولأن عثمان جُعل للناس إمامًا يقتدون به، فكيف يرى فيه لحنا ويتركه لتقيمه العرب بألسنتها؟ فإذا كان الذين تولوا جمعه وكتابته لم يقيموا ذلك وهم الخيار، فكيف يقيمه غيرهم؟! وأيضًا فإنه لم يكتب مصحفًا واحدًا، بل كتب عدة مصاحف، فإن قيل: إن اللحن وقع في جميعها، فبعيد اتفاقها على ذلك أو في بعضها فهو اعتراف بصحة البعض، ولم يذكر أحد من الناس أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم تأت المصاحف قط مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءة، وليس ذلك بلحن.

وكيف يظن بالصحابة أولًا أنهم يلحنون في الكلام فضلًا عن القرآن، وهم الفصحاء اللد؟ ثم كيف يُظن بهم ثانيًا في القرآن الذي تلقوه من النبي ﷺ كما أنزل وحفظوه وضبطوه وأتقنوه؟ ثم كيف يظن بهم ثالثًا اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته؟

ثم كيف يظن بهم رابعًا عدم تنبههم ورجوعهم عنه؟ ثم كيف يظن بعثمان أنه ينهي عن تغييره؟ ثم كيف يظن أن القراءة استمرت على مقتضى ذلك الخطأ وهو مروي بالتواتر خلفًا عن سلف؟

هذا مما يستحيل عقلًا وشرعًا وعادة[4].

---

(١) الرعد: ٣١.

(٢) راجع كتاب المصاحف لأبي داود باب المصاحف العثمانية، ص١١٩، ط١، الفاروق الحديثة: القاهرة، مصر، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٥/٢٥١، ط١، دار الكتب العلمية: (١٤٠٨هـ/١٩٨٧م) بتصرف.

(٤) الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، ٢/٣٢١، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب: (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

يقول الإمام ابن الجزري فيما نسب إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه من وقوع لحن في القرآن:

كيف يصح أن يكون عثمان ﷺ يقول ذلك في مصحف جعل للناس إمامًا يقتدى به ثم يتركه لتقيمه العرب بألسنتها، ويكون ذلك بإجماع من الصحابة؟! وهو لم يأمر بكتابة مصحف واحد، إنما كتب بأمره عدة مصاحف، ووجه كلا منها إلى مصر من أمصار المسلمين.

فماذا يقول أصحاب هذا القول فيها؟ أيقولون: إنه رأى اللحن في جميعها متفقًا عليه فتركه لتقيمه العرب بألسنتها؟ أم رآه في بعضها؟

فإن قالوا: في بعض دون بعض، فقد اعترفوا بصحة بعضها، ولم يذكر أحد منهم، ولا من غيرهم أن اللحن كان في مصحف دون مصحف، ولم تأت المصاحف مختلفة إلا فيما هو من وجوه القراءات، وليس ذلك بلحن؛ وإن قالوا: رآه في جميعها، لم يصح أيضًا، إذ يكون مناقضًا في نصب إمام يقتدى به على هذه الصورة.

ومما يدل على حرص عثمان على تصحيح ما في الرسم ما أخرجه أبو عبيدة عن عبد الله بن هانئ قال: كنت عند عثمان – رضي الله عنه – وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب، فيها: "لم يتسن" وفيها: "لا تبديل للخلق"، وفيها: "فأمهل الكافرين" فدعا بالدواة، وكتب: (لم يتسنه) فألحق فيها الهاء، ومحا "فأمهل" وكتب (فمهل) ومحا أحد اللامين من "للخلق" وكتب (لا تبديل لخلق الله)، فهل يصح في العقول ممن هذا شأنه أن يرى لحنا في المصاحف ثم يقرهم عليه، ويدعه للعرب تصلحه؟ ومن أحق بإصلاح اللحن والخطأ منه – رضي الله عنه – وهو من هو في حفظ القرآن والحفاظ عليه[1].

ومن المشاهد أنه لو أمر أحد الملوك أو الأمراء، بنسخ مصحف أو كتاب لا يقدمه الكاتب إليه إلا بعد العناية بتصحيحه، والتثبت من عدم وجود أي غلط فيه، فكيف بهؤلاء الصحابة الذين بذلوا أنفسهم لله تعالى، ألا يتحرون في كتابة وضبط المصحف الكريم، الذي هو أساس الدين الإسلامي الحنيف؟ هذا، ولقد وصلت عدة مصاحف من جمع عثمان إلى البلدان الإسلامية، فلو وجدوا فيها خطأ أو لحنا، لما سكت أحد من المسلمين عليه، ولكنهم أجمعوا على صحتها وقبولها، ولهذا كان إجماعهم حجة، على أنك لن تجد من المسلمين عناية بشيء كعنايتهم بكتاب الله تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، سواء في نسخه، أو تصحيحه، أو حفظه، أو حرمته، وهذا لا يحتاج إلى دليل.

وانظر: كم من المصاحف لا تعد ولا تحصى قد كتبت منذ بدء الإسلام إلى يومنا هذا، فهل رأيت فيه تبديلًا أو تغييرًا، مع كثرة أعداء الدين من مختلف الأجناس والعقول[2]؟

وقد نقل الزركشي في شرحه على المواهب اللدنية عن يحيى بن أكتم أن يهوديًا دخل على المأمون، فأحسن الكلام، فدعاه إلى الإسلام، فأبى، ثم بعد سنة جاء مسلمًا، فتكلم فأحسن الكلام، فسأله المأمون ما سبب إسلامه، قال: انصرفت من عندك، فامتحنت هذه الأديان فعمدت إلى التوراة، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها

---

(١) راجع: رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين، د. عبد الحي الفرماوي، ط١، مكتبة الأزهر: القاهرة، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)، ص١١٦-١١٧، المدخل لدراسة القرآن الكريم، د. محمد بن محمد أبو شهبة، ص٣٦٢، وما بعدها.

(٢) تاريخ القرآن الكريم، محمد طاهر الكردي، ص٥٨، مطبعة الفتح: (١٩٤٦م) م بتصرف.

ونقصت، وأدخلتها البيعة، فاشتريت مني، وعمدت إلى القرآن، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين، فتصفحوها، فوجدوا فيها الزيادة والنقصان، فرموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا الكتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي(١).

وأيًا كان تأويل ما سبق نسبته لأعلام الصحابة من وقوع اللحن والخطأ في كتاب الله فليس هذا بقادح في القرآن الذى أجمعت الأمة على سلامته وكماله وتمامه، محققة في ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٢).

قال د. أبو شهبة: وأما قول من قال: إن الصحابة اصطلحوا على أمر الرسم المذكور فلا يخفى ما في كلامه من البطلان؛ لأن القرآن كتب في زمان النبي صلى الله عليه وسلم، وبين يديه، وحينئذ فلا يخلوا ما اصطلح عليه الصحابة، إما أن يكون هو عين الهيئة أو غيرها، فإن كان عينها بطل الاصطلاح؛ لأن أسبقية النبي صلى الله عليه وسلم تنافي في ذلك وتوجب الاتباع، وإن كان غير ذلك فكيف يكون النبي صلى الله عليه وسلم كتب على هيئة كهيئة الرسم القياسي مثلًا، والصحابة خالفوا وكتبوا على هيئة أخرى فلا يصح ذلك لوجهين:

أحدهما: نسبة الصحابة إلى المخالفة، وذلك محال.

ثانيهما: أن سائر الأمة من الصحابة وغيرهم أجمعوا على أنه لا يجوز زيادة حرف في القرآن ولا نقصان حرف منه، وما بين الدفتين كلام الله عز وجل؛ فإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم أثبت ألف الرحمن والعالمين مثلًا، ولم يزد الألف في"مِائَةَ" ولا في "ولا أوضعوا" ولا الياء في "بأييد" ونحو ذلك، والصحابة عاكسوه في ذلك وخالفوه لزم أنهم – وحاشاهم من ذلك – تصرفوا في القرآن بالزيادة والنقصان، ووقعوا فيما أجمعوا هم وغيرهم على ما لا يحل لأحد فعله، ولزم تطرق الشك إلى جميع ما بين الدفتين، لأنا مهما جوزنا أن تكون فيه حروف ناقصة، أو زائدة، على ما في علم النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى ما عنده، وأنها ليست بوحي، ولا من عند الله، ولا نعلمها بعينها، شككنا في الجميع، ولئن جوزنا للصحابي أن يزيد في كتابته حرفًا ليس بوحي لزمنا أن نجوز لصحابي آخر نقصان حرف من الوحي إذ لا فرق بينهما، وحينئذ تنحل عروة الإسلام بالكلية(٣).

أما ما اعترض عليه ابن خلدون من رسم بعض الكلمات القرآنية على غير المتعارف عليه مثل: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾(٤) فقد تتبعه الآلوسي بقوله:

وأنت تعلم أن كون زيادة الألف في «لا أذبحنه» لقلة إجادتهم رضي الله تعالى عنهم صنعة الكتابة في غاية البعد، وتعليل ذلك بما تقدم من التنبيه على عدم وقوع الذبح كذلك وإلا لزادوها في لَأُعَذِّبَنَّهُ لأن التعذيب لم يقع أيضًا.

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ٧/٢٠٦، ط١، دار الكتب العلمية: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

(٢) الحجر: ٩.

(٣) المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص٣٥٧، وما بعدها.

(٤) النمل: ٢١.

وما أشار إليه – يعني ابن خلدون – من أن الإجادة في الخط ليس بكمال في حقهم إن أراد به أن تحسين الخط وإخراجه على صور متناسبة يستحسنها الناظر وتميل إليها النفوس كسائر النقوش المستحسنة ليس بكمال في حقهم ولا يضر بشأنهم فقده فمسلم، لكن هذا شيء وما نحن فيه شيء، وإن أراد به أن الإتيان بالخط على وجهه المعروف عند أهله، من وصل ما يصلونه وفصل ما يفصلونه، ورسم ما يرسمونه، وترك ما يتركونه، ليس بكمال فهذا محل بحث، ألا ترى أنه لا يعترض على العالم بقبح الخط وخروجه عن الصور الحسنة والهيئات المستحسنة ويعترض عليه بوصل ما يفصل وفصل ما يوصل ورسم ما لا يرسم وعدم رسم ما يرسم ونحو ذلك إن لم يكن ذلك لنكتة![١]

أما قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[٢] فقد قرأ حمزة اللفظ بأييد بالوقوف وبالتخفيف وبالتسهيل، وبإبدال الهمزة ياء مفتوحة فتصير القراءة بأيَيْد، فمن قرأ بتحقيق الهمزة اعتبرت الياء زائدة، ومن قرأ بتخفيف الهمزة وتسهيلها قرأها بياءين الأولى الهمزة المبدلة ياء والثانية هي فاء الكلمة.

والصواب في هذه الحال أن الزائد هو حرف الألف كما هو الحال في لفظ مائة، وبقي للإشارة إلى قراءة تحقيق الهمزة لأنها تعد في أول الكلمة، فيلزم رسمها على الألف[٣].

أما الياءان فهما أصليان، وهناك من اعتبر أن الياء الأولى هي الزائدة، ولكن الصواب هو الرأي الأول.

فمثل هذا الرسم إنما كان هكذا ليسع قراءتي التحقيق والتسهيل.

ومن توجيهها أنها إنما كتبت بياءين فرقًا بين الأيد الذي هو القوة وبين الأيدي جمع يد، ولا شك أن القوة التي بنى الله بها السماء هي أحق بالثبوت من الأيدي، فزيدت الياء لاختصاص اللفظة بمعنى أظهر[٤].

قال الداني[٥]: وليس شيء من الرسم ولا من النقط اصطلح عليه السلف رضوان الله عليهم إلا وقد حاولوا به وجها من الصحة والصواب، وقصدوا فيه طريقًا من اللغة والقياس، لموضعهم من العلم، ومكانهم من الفصاحة، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[٦].

فالقول بأن هؤلاء الأجلة وسائر الصحابة لم يعرفوا مخالفة رسم الألف هنا لما يقتضيه قوانين أهل الخط وكذا سائر ما وقع من المخالفة مما لا يقدم عليه من له أدنى أدب وإنصاف[٧].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي، ١٠/١٨٠، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١٥هـ).

(٢) الذاريات: ٤٧.

(٣) اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر للدمياطي، ص٤٠٠، المطبعة العامة: القاهرة، (١٢٨٥م)، وابن خلدون ورسم المصحف، ص١٦.

(٤) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ١/٣٧٨، دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه: (١٣٧٨هـ).

(٥) الإمام، الحافظ، المجود، المقرئ، الحاذق، عالم الأندلس، أبو عمرو عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر الأموي مصنف (التيسير)، و(جامع البيان) وغير ذلك، ولد سنة إحدى وسبعين وثلاث وتوفي مائة سنة أربع وأربعين وأربع مائة (سير أعلام النبلاء للذهبي ١٨/٧٧).

(٦) المحكم في نقط المصاحف لأبي عمرو الداني، ص١٩٦، ط٢، دار الفكر: دمشق، (١٤٠٧).

(٧) روح المعاني ١٠/١٨٠.

المبحث الرابع: مناقشات وردود

بعد هذا البيان والإيضاح، لا بد من عدة وقفات لإثبات عدد من الردود والمناقشات على ما ذهب إليه ابن خلدون ومن قال برأيه، وهي على النحو الآتي:

أ- مبالغات وتناقضات:

إن المصادر التي بالغت في اتهام الصحابة رضي الله عنهم بالجهل بالكتابة ناقضت نفسها في مواضع كثيرة، حيث يذكر أحدها في موضع ما أن الجهل كان مطبقًا على العرب بل والمسلمين في العهد النبوي، وأنه لم يكن منهم مَنْ يعرف الكتابة والقراءة إلا الواحد أو الاثنان، وإذا كتب لم يتقن ولم يصب التهجي.

ثم يذكر في مواضع أخرى أسماء لعدد كبير من الذين كانوا يحسنون الكتابة والقراءة وهكذا، ومعلوم أن هذا الكلام لم يكن مبنيًّا على الجرد والاستقراء، وقد درج على هذا المنهج أغلب الذين تحدثوا عن مكانة الكتابة عند العرب(١).

ب- الكتابة في صدر الإسلام:

هناك دلائل عديدة على وجود الكتابة، وانتشار المعارف بين العرب قبل الإسلام، لكن لم تكن الكتابة هي عصب المعرفة آنذاك، وكان اعتمادهم على الحافظة، فقد أثبتت الكتابات والنقوش المكتشفة أنَّ العرب في الجاهلية كانوا يكتبون قبل الإسلام بأكثر من ثلاثة قرون، لكن لم تكن الكتابة لديهم شائعة إلا قرب البعثة المحمدية(٢).

قال الدكتور شوقي ضيف: لا يخلو حجر في جنوبي الجزيرة العربية وقبلها وشماليها من نقش تذكاري نقشه كتاب محترفون أو غير محترفين من الرعاة ورجال القوافل، يذكرون فيه أسماء آلهتهم متضرعين إليها أن تحميهم، وقد يذكرون ما يقدمون إليها من قرابين، وقد يكتبونها على قبورهم مسجلين أسماءهم وأسماء عشائرهم، وما قام به الميت من أعمال، وقد يودعونها بعض قوانينهم وشرائعهم(٣).

وقد نقل ابن خلدون نفسه عن ابن عباس - رضى الله عنهما - نصًا يفيد وجود الكتابة ومعرفة دقائقها قبل البعثة، فقد سأله سائل: يا معشر قريش خبروني عن هذا الكتاب العربي، هل كنتم تكتبونه قبل أن يبعث الله محمدًا، صلى الله عليه وسلم تجمعون منه ما اجتمع وتفرقون منه ما افترق، مثل الألف واللام، والميم والنون؟ قال: نعم، قلت: وممن أخذتموه؟ قال: من حرب بن أمية...(٤).

وفي الفهرست لابن النديم: أنه كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم في جلد، ذكر فيه دينًا لعبد المطلب على أحد رجال اليمن(٥).

---

(١) راجع: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص٢٨٧، دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، ص١٨٩-١٩٢، مكتبة الأنجلو المصرية: (١٩٧٦)، كتابة القرآن الكريم في العهد المكي، تأليف: عبد الرحمن عمر محمد اسبينداري نشر: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

(٢) راجع: رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، د. شعبان محمد إسماعيل، ص٥٢، ط٢، دار السلام للطباعة والنشر: نقلًا عن: تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، ٦٥/٧، ومصادر الشعر الجاهلي، ص٢٥.

(٣) تاريخ الأدب العربي (الشعر الجاهلي)، د/ شوقي ضيف، ص٢٣، ط٢١، دار المعارف: (٢٠٠٠م).

(٤) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر لابن خلدون، ص٥٢٥، ط٢، دار الفكر: بيروت (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

(٥) الفهرست لابن النديم، ص١٥، ط٢، دار المعرفة: بيروت، لبنان، (١٤١٧هـ-١٩٩٧م).

ج- ممارسات كتابية:

تشير الروايات العربية إلى ممارسات كتابية متعددة، سواء في الحجاز أو في الحواضر العربية في أطراف الجزيرة الشمالية، ففي مكة رغم أن الحياة لم تكن بالغة التحضر بالنسبة لذلك العهد وأن دواعي الكتابة كانت محدودة – إلا أنه لا ينكر أنهم حرروا أحيانًا بعض العهود والمحالفات بينهم وبين القبائل المجاورة، رغم أن ذلك كان في نطاق ضيق، وبلدة مثل مكة مقدسة ومتاجرة وعاصمة للثقافة وللحياة الدينية لابد أن يكون بين سكانها جماعة من المثقفين ومن الباحثين في أمور الدين ومن القراء الكاتبين، وتشير الروايات إلى أن ورقة بن نوفل كان يكتب الكتاب العربي والكتاب العبراني، وحين قاطعت قريش النبي ﷺ والمسلمين في بداية الدعوة بمكة كتبوا كتابًا بذلك، وعلقوه في جوف الكعبة....

وهذا قصي بن كلاب يكتب من مكة إلى أخيه ابن أمه رزاح بن ربيعة بن حرام العذري، في مشارف الشام يدعوه إلى نصرته والقيام معه في منازعة خزاعة وبني بكر أمر مكة[1].

ولم يكن الرجال وحدهم هم الذين يقرءون ويكتبون، بل كان من النساء من يكتبن ومنهن الشفاء بنت عبد من أسرة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – فقد كانت تكتب في الجاهلية والإسلام، وهي التي علمت السيدة حفصة بنت عمر – رضي الله عنهما – زوج النبي – صلى الله عليه وسلم – الكتابة[2].

ويكفي في الاستدلال على هذا الأمر أن النبي ﷺ أمر فقراء المشركين ممن وقعوا في الأسر يوم بدر أن يعلم الواحد منهم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة.

ففيه دلالة على فشو الكتابة بين الفقراء، وإذا كان الفقراء على علم بالقراءة والكتابة فمعرفة الأغنياء من باب أولى!

ولم يكن الصحابة – رضي الله عنهم – يعرفون الكتابة فقط، بل كانوا يعرفون النقط والشكل أيضًا.

قال الإمام ابن الجزري: وجردت المصاحف جميعها من النقط والشكل، ليحتملها ما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبي صلى الله عليه وسلم[3].

وروي عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: جردوا القرآن ليربو فيه صغيركم، ولا ينأى عنه كبيركم[4].

والمراد بذلك: تجريد المصحف من النقط والفواتح والعشور، لئلا يفهم الصغار أن ذلك من القرآن[5].

وليس معنى هذا أنهم جميعًا على علم بالكتابة أو حتى الأكثرية منهم، بل المراد أن فيهم من كان يكتب ويجيد الخط.

قال ابن فارس[6]: لم نزعم أن العرب كلها مدرًا ووبرًا قد عرفوا الكتابة كلها والحروف أجمعها، وما العرب في قديم الزمان إلا كنحن اليوم، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة[7].

---

(١) رسم المصحف، دراسة لغوية تاريخية، ص٢٤، نقلًا عن عدة مراجع.

(٢) رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، ص٥٣.

(٣) النشر ١/٧.

(٤) أخرجه أبو عبيد القاسم بن سلام في فضائل القرآن، ص ٧٦، ط١، دار ابن كثير: دمشق، بيروت، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م)، وجزء منه في مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/١٣٢، ط١، دار الحديث: القاهرة، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

(٥) رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة، ص٥٤.

(٦) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا بن محمد بن حبيب الرازي اللغوي؛ كان إمامًا في علوم شتى، وخصوصًا اللغة، توفي سنة تسعين وثلثمائة بالري، وقيل: إنه توفي في صفر سنة خمس وسبعين وثلثمائة والأول أشهر (وفيات الأعيان ١/١١٨)

(٧) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، ص١٦، ط١، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

د- قياس السابق على اللاحق:

تصور ابن خلدون – ومن قال بقوله – أن هناك نظامًا للكتابة في أول الإسلام خاصًا بأهل الصناعة وأهل الخط غير الذي جاء في المصحف، وأن الصحابة – رضوان الله عليهم – قد قصرت هممهم عن إجادة استخدام ذلك النظام الكتابي، فوقع نتيجة لذلك ما جاء في المصحف من وجوه عُدت في الفترات اللاحقة مخالفة لقواعد أهل الصناعة، وهو بهذا قد وقع –كما وقع غيره – من محاولة النظر إلى الرسم المصحفي من خلال القواعد التي وضعها علماء العربية بعد نسخ المصاحف بعشرات السنين.

وهذا القياس لا يجوز عقلًا ولا واقعًا، إذ كيف نحاسب الصحابة رضوان الله عليهم – على أمر وقع وحدث بعدهم بسنوات!؟

هـ- إشارات قرآنية وتوجيهات نبوية:

مما يجب أن يلحظ في هذا المقام – مقام التدليل على معرفة العرب عامة والصحابة خاصة للكتابة – يجب أن نلحظ حديث القرآن عن الخط ومتعلقاته.

فمثلًا نجد أن القراءة وما اشتق منها قد وردت في القرآن حوالي تسعين مرة، وأن الكتابة وما اشتق منها وردت نحوًا من ثلاثمائة مرة، وأن أول ما نزل من الوحي هو اقرأ، وفيها تمجيد من الحق تبارك وتعالى للقلم وكونه علم به الإنسان ما لم يعلم، ثم أقسم في آيات أخرى بالقلم وما يسطرون،﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾(1).

وكثيرًا ما يذكر القرآن عن المشركين أنهم يطلبون من النبي كتابًا يقرؤونه أو صحفًا منشرة ﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾(2)، كما ذكر عنهم وصفهم للوحي المنزل بأنه ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾(3)، وذكر القرآن أيضًا القرطاس: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾(4)، والمداد ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾(5)، والقلم: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾(6)، والصحف: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ﴾(7) ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾(8)، والسجل ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾(9)، والرق ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾(10).

---

(1) القلم: ١.
(2) المدّثر: ٥٢.
(3) الفرقان: ٥.
(4) الأنعام: ٧.
(5) الكهف: ١٠٩.
(6) العلق: ٤.
(7) عبس: ١٣
(8) البينة: ٢.
(9) الأنبياء: ١٠٤.
(10) الطور: ٣.

كل هذه الإشارات القرآنية تدل على معرفتهم بما يطلبون أو بما يخاطبون به.

وإضافة إلى ما ورد في كتاب الله تعالى نجد كلام النبي ﷺ وفعله يدل على وجود الكتابة ووفرتها، من ذلك: نهيه ﷺ الصحابة عن كتابة شيء غير القرآن بقوله: "لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه"(١).

وما رواه البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قال: "اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس، فكتبنا له ألفا وخمس مائة رجل"(٢).

وأمر بالكتابة لرجل من أصحابه فقال: "اكتبوا لأبي شاة"(٣).

وروى عبد الله بن عمرو، قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ وأريد حفظه، فنهتني قريش عن ذلك، قالوا: تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب، قال: فأمسكت، فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأشار بيده إلى فيه، فقال: "اكتب فو الذي نفسي بيده: ما يخرج منه إلا حق"(٤).

وقد بلغ عدد كتاب الوحي أكثر من أربعين كاتبًا(٥)، وكان النبي ﷺ حريصًا على مراجعتهم فيما يكتبون من القرآن.

قال زيد بن ثابت: كنت أكتب الوحي لرسول الله ﷺ، وكان إذا نزل عليه أخذته برحاء شديدة، وعرق عرقًا شديدًا مثل الجمان، ثم سري عنه، فكنت أدخل عليه بقطعة الكتف أو كسرة، فأكتب وهو يملي علي، فما أفرغ حتى تكاد رجلي تنكسر من ثقل القرآن، وحتى أقول: لا أمشي على رجلي أبدًا، فإذا فرغت قال: اقرأه، فأقرؤه، فإن كان فيه سقط أقامه، ثم أخرج به إلى الناس(٦).

وحثَّ النبي ﷺ بعض أصحابه أن يتعلموا لغة غير اللغة العربية، لما دعت الحاجة إلى ذلك – بعد انتشار الإسلام – ففي البخاري عن زيد بن ثابت قال: أُتِيَ بي النبيَّ ﷺ مَقدَمه المدينة، فقيل :هذا من بني النجار، وقد قرأ سبع عشرة سورة، فقرأتُ عليه فأعجبه ذلك، فقال :تعلمْ كِتابَ (كتابة) يهود، فإني ما آمنهم على كتابي، ففعلتُ، فما مضى لي نصف شهر حتى حذِقته، فكنت أكتب له إليهم؛ وإذا كتبوا إليه قرأت له.

وفي حديث آخر عن زيد بن ثابت قال :قال لي النبي ﷺ:" إني أكتب إلى قوم فأخاف أن يزيدوا عليَّ أو ينقصوا، فتعلم السريانية"، فتعلمتها في سبعة عشر يومًا(٧)، وقد أورد أحمد أمين هذا الأمر عن زيد في كتابه.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب التثبت في الحديث وحكم كتابة الحديث، ٢٢٩٨/٤، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار إحياء التراث العربي: بيروت.

(٢) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير باب كتابة الإمام الناس، ٧٢/٤، ط١، دار طوق النجاة، (١٤٢٢هـ).

(٣) المرجع السابق كتاب اللقطة باب كيف تعرف لقطة أهل مكة، ١٢٥/٣.

(٤) مصنف ابن أبي شيبة، ٣١٣/٥، ط١، مكتبة الرشد: الرياض، (١٤٠٩).

(٥) صرح حنفي بك ناصف في كتاب حياة اللغة العربية، ص٧٨، بأنهم ثلاثة وأربعون كاتبًا، وهو يتفق مع العدد الذي ذكره الزنجاني في تاريخه، ص٢٠، وزاد عليهما صاحب المصباح المضي، ص١٩١، كاتبًا، فصار عددهم أربعة وأربعين كاتبًا.

(٦) المعجم الأوسط للطبراني، ٢٥٧/٢، دار الحرمين: القاهرة، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م) م قال الهيثمي: رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ، وَرِجَالُهُ مُوَثَّقُونَ، إِلَّا أَنَّ فِيهِ: وَجَدْتُ فِي كِتَابِ خَالِي، فَهُوَ وِجَادَةٌ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٥٢/١، مكتبة القدسي، القاهرة، (١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

(٧) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ٤٧٧/٣، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، وقال الحاكم: صحيح، ووافقه الذهبي.

قلت: أيقدر زيد على تعلم السريانية ويكون لها متقنًا حاذقًا في هذه المدة، ثم يجهل كتابة لغة قومه، ويظل عجزه وخلله طيلة بقاء النبي ﷺ وكتابته الوحي حتى وفاته ﷺ، ثم مدة خلافة أبي بكر واختياره لزيد تولي جمع المصحف، ثم يظل أيضًا زمن خلافة عثمان قرابة ثلاثة قرون من الزمان وفي كل هذه الفترة لا يفكر في تسوية الخلل ولا درك العجز في إجادة الخط، هذا مما يعجب له.

و- الإجماع على وثاقة أحرف القرآن وكلماته:

أجمعت الأمة - سلفًا وخلفًا - على وثاقة ما كتب في المصحف دون زيادة أو نقص في أحرفه أو كلماته.

قال القاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ): أجمع المسلمون أن القرآن المتلو في جميع أقطار الأرض المكتوب في المصحف بأيدي المسلمين مما جمعه الدفتان من أول (الحمد لله رب العالمين) إلى آخر (قل أعوذ برب الناس) أنه كلام الله، ووحيه المنزل على نبيه محمد ﷺ.. وأن جميع ما فيه حق، وأن من نقص منه حرفًا قاصدًا لذلك، أو بدله بحرف آخر مكانه، أو زاد فيه حرفًا مما لم يشتمل عليه المصحف الذي وقع الإجماع عليه وأجمع على أنه ليس من القرآن عامدًا لكل هذا، أنه كافر(١).

وإذا كنا نأخذ بفعل صحابي واحد ونقتدي بفعله، فكيف وقد اجتمع على كتاب المصاحف حين كتبوه نحو أثني عشر ألفًا من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين؟

ز- المحافظة على تراث الأمة وهويتها:

لا شك أن كل أمة تفتخر بإرثها، وتعتز بمقدساتها، وتعد ذلك عنوانًا لها على أصالتها وقيمتها، وتجرم وتعاقب كل من يحاول تغييره أو المساس به.

ومن ذلك أن الشعب الإنجليزي لم يسمح لطابع ما، ولا لناشر كائنًا من كان أن يكتب أشعار "شكسبير" شاعرهم العظيم بغير لغة العصر الذي عاش فيه مع تغير كثير من كلماته وطرق إملائه عن العهد المتداول في عصر الشاعر المذكور.

لم يسمح الإنجليز بهذا، لأن شعر الشاعر المذكور أصبح في نظرهم مقدسًا لا يجوز المساس به حتى في طريقة إملائه، أفلا يكون الأجدر بالمسلمين - وهم يقدسون كتابهم أشد من تقديس الإنجليز لشعر هذا الشاعر- أن يحافظوا على رسمه وكتابته؟، ولا يجعلونه عرضة لقواعد الإملاء والهجاء.

فقواعد الهجاء والإملاء الحديثة عرضة للتغيير والتنقيح في كل عصر، وفي كل جيل، فلو أخضعنا رسم القرآن لهذه القواعد لأصبح القرآن عرضة للتغيير والتبديل، وحيطتنا للكتاب العزيز، وتقديسنا له يضطرنا إلى أن نجعله بمنأى من هذه التغييرات في رسمه وكتابته.

وفي هذه المحافظة احتياط شديد لبقاء القرآن على أصله لفظًا وكتابة، فلا يفتح فيه باب الاستحسان؛ لأنه إذا فتح الاستحسان في الرسم فقد لا يلبث أن يفتح في اللفظ ويتطرق إليه التغيير والتبديل.

ومن طريف ما يذكر في هذا الموضوع أن محكمة استئناف مصر حكمت بمصادرة مصحف، وعللت حكمها بأن هذا المصحف مكتوب حسب قواعد الإملاء، ومخالف للرسم العثماني الذي يجب أن تكتب المصاحف كلها

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، ٦٤٧/٢، ط٢، دار الفيحاء: عمان، (١٤٠٧هـ).

حسب قواعده، وكان من حيثيات حكمها أيضًا أن الأمم الراقية تحافظ على آثار سلفها، وتجعلها في المحل الأول من العناية والمحافظة(١).

ح- دقة الصحابة رضي الله عنهم:

إن المتأمل في ظواهر الرسم يجد أن الصحابة – رضي الله عنهم –كانوا من الدقة في كتابة المصاحف بما لا يستطيع منصف أن ينكره.

من ذلك: رسمهم لبعض الكلمات بصور مختلفة، نتيجة لاختلاف القراءات والأوجه الواردة في الكلمة.

ومن أمثلة ذلك كلمة: "الأيكة" وقعت في القرآن الكريم في أربعة مواضع:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾(٢) بالحجر.

الثاني: قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(٣) بالشعراء.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ﴾(٤) بـ"ص".

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾(٥) بـ"ق".

رسمت الكلمة في سورتي الحجر وق هكذا "الأيكة" بألف قبل اللام، ورسمت في سورتي الشعراء وص هكذا "ليكة" بدون ألف كما هو واضح في رسم المصحف.

وهذا إن دل فإنما يدل على أنه ليس لأحد من الصحابة ولا من تبعهم دخل في رسم كلمة من كلمات القرآن، وإنما هو توقيف من النبيﷺ، وهو الذي أمرهم أن يكتبوه على الهيئة المعروفة بزيادة الألف ونقصانها؛ لأسرار لا تهتدي إليها العقول وهو سر من الأسرار خص الله به كتابه العزيز دون سائر الكتب السماوية.

وإنما خفيت عن الناس لأنها أسرار باطنية لا تدرك إلا بالفتح الرباني، فهي بمنزلة الألفاظ والحروف المقطعة التي في أوائل السور، فإن لها أسرارًا عظيمة، ومعاني كثيرة، وأكثر الناس لا يهتدون إلى أسرارها، ولا يدركون شيئا من المعاني التي أشير إليها، فكذلك أمر الرسم الذي في القرآن حرفًا حرفًا(٦).

ط- الكتابة والحضارة:

لم يفرق ابن خلدون بين جودة الخط وأناقة الرسم وبين صحة الإملاء ومعرفة قواعد اللغة، وإذا صح أن جودة الخطوط تتعلق بالحضارة والعمران، فإن صحة الإملاء لا علاقة لها بالعمران، وربما أفسدت الحضارة الكثير من قواعد اللغة والإملاء، لأن الحضارة توجه الاهتمام إلى مظاهر الترف، وتبعد الفرد عن أصالته وتضعف لديه القدرة على التركيز.

---

(١) مجلة المقتطف، العدد يوليو (١٩٣٣م)، ص٢٠٦، وصحيفة المدينة، (١٨/١١/١٩٧٥م) بتصرف.

(٢) الحجر: ٧٨.

(٣) الشعراء: ١٧٦.

(٤) ص: ١٣.

(٥) ق: ١٤.

(٦) المدخل لدراسة القرآن الكريم، د/ محمد أبوشهبة، ص٣٥٧، بتصرف.

ولا خلاف في أن الخط ليس بكمال في حق الصحابة رضي الله عنهم وكتّاب الوحي، ولا يتفاضل الصحابة بجودة الخطوط وحسن الرسوم، فذلك فن يحتاج إلى إعداد وتكوين وتعليم، إلا أن ذلك كله لا يمكن أن يكون حجة على ما يقوله ابن خلدون من وقوع أخطاء إملائية في الرسم القرآني، وذلك دليل قصور، وهذا أمر مرفوض بالنسبة لجماع القرآن.

ولو توقف ابن خلدون عند حدود القول بأن الرسم القرآني أمر اجتهادي، ولا مجال للتوقيف فيه لكان الأمر مقبولًا[1].

أما ربط ابن خلدون بين الحضارة والكتابة، وجعل الحضارة أصلًا لانتشار الكتابة فهذا محل اجتهاد ونظر فإذا نظرنا إلى الحضارة فإن مكة كانت مركزًا للتجارة يفد عليها الناس من كل البقاع، وهذا يجعها محطًا للحضارات على تنوعها واختلافها.

ومن وجهة أخرى فالأمم الأخرى كانت تستهدي لانحرافاتها العظيمة بمشاعل الحضارة والثقافة والمدنية، فكانت تتقلب في حمأة الفساد عن تبصر وتخطيط وفكر.

ذلك أن الحضارة بمختلف مقوماتها ومظاهرها ليست سوى وسيلة وسبب، فإن عدم أهلها التفكير الصائب والمثل الأعلى الصحيح استحالت الحضارة في أيديهم إلى وسيلة للنزول بها إلى درك الشقاء والاضطراب، أما إن أوتي أهلها مقياسًا من العقل الرشيد الذي قلما يأتي إلا بواسطة الدين والوحي الإلهي فإن القيم الحضارية والمدنية كلها تصبح وسائل جميلة سهلة إلى السعادة التامة في مختلف أنواعها ومظاهرها.

هذا بالنسبة لأصحاب الحضارات والمدنية أمثال فارس والروم، وهكذا كل الحضارات إن لم تحرس بمنهاج الله في الأرض زالت وبادت وأصبحت أثرًا بعد عين.

ولا يعني هذا أن العرب كانوا في منأى عن هذا الانحطاط الأخلاقي الذي غرق فيه أصحاب الحضارات وقتئذ! فقد عاشوا الضلال بما يتواءم مع طبيعتهم وبداوتهم، وما تتيحه لهم هذه البداوة من وسائل وسبل الانحراف، فالفرق في الوسائل لا في الغايات[2].

الخاتمة:

أثبت هنا أهم ما توصل إليه البحث من نتائج وتوصيات:

- لم يكن ابن خلدون أول من قال بالخطأ في رسم المصحف، بل سبق من قال بهذا القول إما تصريحًا وإما تلميحًا.
- اشتهر ابن خلدون بهذا القول رغم عدم أسبقيته لجرأته على كتاب الوحي من جهة، ولشهرة مقدمته بين يدي الناس من جهة أخرى.
- أخطأ ابن خلدون ومن قال بقوله حين قاسوا كتابة الصحابة للمصحف على القواعد الإملائية التي كتبت بعدهم بسنوات.
- ربط كتاب الله تعالي بقواعد الإملاء الحديثة يجعله عرضة للتغيير بتغيرها.

---

(١) الفكر الخلدوني من خلال المقدمة محمد فاروق النبهان، ص٤٠٦، ط١، مؤسسة الرسالة: (١٤١٨هـ ١٩٩٨م).

(٢) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص٣١/٣٢، ط٤، دار السلام: (١٤١٧هـ/١٩٩٧م)، بتصرف.

- تجرأ بعض الكاتبين على الرسم القرآني ووصفوه بصفات خالية من الأدب نتيجة لتأثرهم برأي ابن خلدون.
- تبرز خطورة مقولة ابن خلدون حول رسم المصحف في جرأته على كتبة الوحي واتهامهم ومن بعدهم بتعمد الخطأ في كتاب الله تعالى.
- لم يكن سلف هذه الأمة يقدسون القول أو الفعل مهما كان صاحبه إذا كان مخالفًا للحق، فالحق عندهم مقدم على الرجال.
- ما نسب إلى أعلام الصحابة من وجود لحن أو خطأ في كتاب الله قول باطل، بين فساده، وهم منه براء.
- كانت الكتابة معروفة ومشهورة قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون، وكان العرب يتكاتبون في بيعهم وتجاراتهم وعبادتهم.
- ذكرت كثير من المراجع معرفة عدد كبير من الصحابة للكتابة وإتقانهم لها، بما في ذلك الرجال والنساء والعبيد والإماء.
- كان النبي ﷺ حريصًا على متابعة الكتبة ومراجعتهم فيما كتبوه، وقد بلغ عدد كتاب الوحي فوق الأربعين كاتبًا.
- لم يكن الصحابة على دراية بالأحرف والكلمات فحسب، بل كانوا يعرفون النقط والشكل وجردوا منها مصاحفهم لتحتمل ما صح نقله وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ.
- ما ضيعت الأمة من الوحي شيئًا، وحافظوا على كتاب الله تعالى في لفظه ورسمه، ونقلوه كاملًا من غير نقصان.
- إذ لم تكن الحضارة مصونة بالفكر الصائب والمثل العليا استحالت شقاء ووبالًا على أصحابها.
- أجمعت الأمة على سلامة ما بين دفتي المصحف من سورة الفاتحة إلى سورة الناس من غير زيادة ولا نقص.

وأخيرًا: فإن الباحث يوصي بسدِّ هذا الباب، باب الدعوة لتغيير رسم المصحف بأي حجة كانت؛ فإنه فتح لباب شر مستطير، يبدأ بالحرف وينتهي بالكتاب كله، ألا فسدوا هذا الباب، وادرأوا هذه الفتنة.

كما يوصي الباحث المشتغلين بالدراسات القرآنية أن يوجهوا عنايتهم صوب المقدمة الخلدونية وما شابهها، ودراسة ما فيها من آراء وأفكار تتعلق بكتاب الله، وتجلية الحقيقة في هذه الأقوال، وتأصيل جذروها، وبيان أثرها، والحمد لله رب العالمين

المراجع والمصادر:

القرآن الكريم، جل من أنزله.

أبعاد الرؤية القرآنية في الفكر الخلدوني من خلال المقدمة. د/نجيب خيرة. *مجلة المشكاة*، العدد(٤)، (٢٠٠٦م).

ابن خلدون إسلاميًا. د. عماد الدين خليل. ط١، المكتب الإسلامي: بيروت، (١٤٠٣/١٩٨٣م).

ابن خلدون ورسم المصحف العثماني. د/ حسين أبو الفتوح. ط١، مكتبة لبنان: بيروت، (١٩٩٢م).

اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر. للدمياطي. المطبعة العامة: القاهرة، مصر، (١٢٨٥م).

الإتقان في علوم القرآن. لجلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب: (١٣٩٤هـ/١٩٧٤م).

الإحاطة في أخبار غرناطة. لابن الخطيب. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤٢٤هـ).

الأعلام. لخير الدين الزركلي. ط١٥، دار العلم للملايين: أيار/ مايو (٢٠٠٢م).

ألف باء. للبلوي. تصحيح مصطفى وهبي، المطبعة الوهبية.

الانتصار للقرآن. للباقلاني. نشر دار الفتح: عَمَّان، ط١، دار ابن حزم: بيروت، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

البحر المحيط في التفسير. لأبي حيان. دار الفكر: بيروت، (١٤٢٠هـ).

البرهان في علوم القرآن. للزركشي. دار إحياء الكتب العربية عيسى الحلبي وشركاه: (١٣٧٨هـ).

تاريخ الأدب العربي (الشعر الجاهلي). د. شوقي ضيف. ط٢١، دار المعارف: (٢٠٠٠م).

تاريخ القرآن الكريم. محمد طاهر الكردي. مطبعة الفتح: (١٩٤٦م).

تأويل مختلف الحديث. لابن قتيبة. ط٢، المكتب الاسلامي - مؤسسة الإشراق الطبعة: (١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

تأويل مشكل القرآن. لابن قتيبة. دار الكتب العلمية: بيروت، لبنان.

التحرير والتنوير. لابن عاشور. الدار التونسية للنشر: (١٩٨٦م).

التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا. لعبد الرحمن بن خلدون. دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر: (١٩٧٩م).

التفسير الحديث. د. دروزة. دار إحياء الكتب العربية: القاهرة، سنة (١٣٨٣هـ).

حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة. لجلال الدين السيوطي. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية: ط١، عيسى البابي الحلبي وشركاه: مصر، (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

حياة اللغة العربية. لحفني ناصف مشر. ط١، مكتبة الثقافة العربية: (١٤٢٣هـ).

الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون ومعه المدخل إلى مقدمة. ابن خلدون ضياء الدين رجب شهاب الدين، ط١، دار الفتح الشارقة: (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

دراسات عن مقدمة. ابن خلدون لساطع الحصري. ط٣، مكتبة الخانجي - دار الكتاب العربي: (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة لتقي. الدين أحمد المقريزي. حققه د. محمود الجليلي، ط١، دار الغرب الإسلامي: (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

دلالة الألفاظ. إبراهيم أنيس. مكتبة الأنجلو المصرية: (١٩٧٦م).

ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر. لابن خلدون. ط٢، دار الفكر: بيروت (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين. د. عبد الحي الفرماوي. ط١، مكتبة الأزهر: القاهرة، (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

رسم المصحف دراسة لغوية. لغانم قدوري الحمد. ط١، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطلع القرن الخامس عشر: العراق، (١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

رسم المصحف وضبطه بين التوقيف والاصطلاحات الحديثة. د. شعبان محمد إسماعيل. ط٢، دار السلام للطباعة والنشر.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. للألوسي. ط١، دار الكتب العلمية: بيروت، (١٤١٥هـ).

سير أعلام النبلاء. للذهبي. دار الحديث: القاهرة، (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح. المحمدية. ط١، دار الكتب العلمية: (١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

شعب الإيمان. للبيهقي. ط١، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع – الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي: الهند، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

الشفا بتعريف حقوق المصطفى. للقاضي عياض. ط٢، دار الفيحاء: عمان، (١٤٠٧هـ).

الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها. لابن فارس. ط١، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

صحيح البخاري. ط١، دار طوق النجاة: (١٤٢٢هـ).

صحيح مسلم. تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي. نشر دار إحياء التراث العربي: بيروت.

الضوء اللامع. للسخاوي. دار مكتبة الحياة: بيروت.

طبقات النحويين واللغويين. للزبيدي. دار المعارف سلسلة ذخائر العرب.

عبقريات. ابن خلدون. ط٢، عكاظ للنشر والتوزيع: (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

فتوح البلدان. للبلاذري. دار ومكتبة الهلال: بيروت، عام النشر: (١٩٨٨م).

فجر الإسلام. لأحمد أمين. ط١٠، دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان، (١٩٦٩م).

فقه السيرة النبوية. د. محمد سعيد رمضان البوطي. ط٤، دار السلام: (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

فقه اللغة. د. علي عبد الواحد وافي. ط٣، نهضة مصر: (٢٠٠٤م).

الفكر الخلدوني من خلال المقدمة. محمد فاروق النبهان. ط١، مؤسسة الرسالة: (١٤١٨هـ/١٩٩٨م).

الفهرست. لابن النديم. ط٢، دار المعرفة: بيروت، لبنان، (١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

كتابة القرآن الكريم في العهد المكي. عبد الرحمن عمر محمد اسبينداري. المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

الكشاف. للزمخشري. ط٣، دار الكتاب العربي: بيروت، (١٤٠٧هـ).

مجلة الرسالة. لأحمد حسن الزيات. صدرت عام ١٣٨٨هـ

مجلة المقتطف. مجلة شامية–مصرية عام ١٨٧٦ من قبل يعقوب صروف وفارس نمر.

مجلة الهلال المصرية. أسسها جورجي زيدان ١٩٨٢م.

مجموع فتاوى. ابن تيمية. ط١، دار الكتب العلمية: (١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

المحكم في نقط المصاحف. لأبي عمرو الداني. ط٢، دار الفكر: دمشق، (١٤٠٧هـ).

المدخل لدراسة القرآن الكريم. د. محمد بن محمد أبو شهبة. ط٢، مكتبة السنة: القاهرة، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

مسند الإمام. أحمد بن حنبل. ط١، دار الحديث: القاهرة، (١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

المصاحف. لأبي داود. ط١، الفاروق الحديثة: القاهرة، مصر، (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

مصنف ابن أبي شيبة. ط١، مكتبة الرشد: الرياض، (١٤٠٩).

معاني القرآن. لأبي زكريا الفراء. ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة: مصر.

المعجم الكبير. للطبراني. ط١، ابن تيمية: القاهرة، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).

النشر في القراءات العشر. لابن الجزري صححه على محمد الضباع. المطبعة التجارية الكبرى.

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. لابن خلكان. دار صادر: بيروت، سنة (١٩٠٠م).